ويحضرنا، في هذا المقام، ما ذكره توماس كيرنان في كتابه «العرب»، الذي أُصدر في الولايات المتحدة العام ١٩٥٧، حيث كتب: «...الصهيونيون اوروبيون تماماً، وليس هناك اية رابطة بيولوجية أو انتربولوجية، بين يهود اوروبا والقبائل العبرية القديمة، اي ليست هناك اية قرابة عضوية، او قرابة دم، بين الصهيونيين، وهم من أهل اوروبا، وبين قدماء العبريين...»(٢٠).

ومهما يكن من أمر، فان المرحلة الاستعمارية الغربية تركت اثراً هاماً في تشكيل الصورة الفلسطينية. اذ عندما انتهت هذه المرحلة، أو أوشكت على الانتهاء، في المنطقة العربية، كان الغرب نجح في ان يبقي على رأس حربة في المنطقة على حساب فلسطين، ممثلة في الكيان الصهيوني. ووسط ذلك المناخ، يبدو أن اصواتا معتدلة ومنصفة تجاه «الآخرين»، من امثال الكونت هنري دي كاستري، أو كارليل، أو اللورد هيدلي، أو د. جرينيه، أو أرنولد توينبي، كانت لا تمثل سوى صيحات خافتة، بفعل حملة التشويه الجارفة، والتي لوّنت الصورة الفلسطينية في الغرب(٢١).

ثالثاً: الصهيونية والصورة الفلسطينية

ان الحركة الصهيونية، كفكر وأدب ودعاية وممارسة سياسية، هي محدد من طبيعة خاصة للصورة الفلسطينية في الغرب. هي محدد هام ومركب، بالمعنى التاريخي والفلسفي. لقد واكبت الصهيونية، بجميع معانيها، عملية تشويه الصورة العربية عموماً، والفلسطينية خصوصاً، في كل مكان، واختصت العالم الغربي بجرعة زائدة.

ان كلاً من الحركة الصهيونية وتجسيدها السياسي (اسرائيل) يلعب دور الوسيط المشبوه، غير النزيه، في ما يتعلق بالادراك الغربي لصورة فلسطين، والفلسطينيين. وانطلاقاً مما ذكرناه في النقطة السابقة (اثر الحقبة الاستعمارية) يمكن تصور هذا الدور، في علاقته المركبة بالغرب، على النحو التالي: تشبّع الفكر الصهيوني بالنهج العنصري الغربي الذي تبلور خلال جميع المراحل السابقة من العلاقات الغربية ـ الاسلامية والغربية ـ العربية، وكذلك من الممارسات الغربية تجاه اليهود وتجاه بقية الشعوب. ثم استدار الصهيونيون ومارسوا عصارة خبرتهم العنصرية ضد الفلسطينيين، والعرب عموماً.

وبعد تأسيس اسرائيل، بدأ هذا الكيان يعمل وسيطاً لمنع اي تغير نحو الموضوعية في الغرب تجاه الفلسطينيين، وذلك في الوقت الذي سعى كل من الحركة الصهيونية واسرائيل الى «تلميع»، أو تحسين، الصورة اليهودية ـ الاسرائيلية في كل مكان(٢٢).

هذا الدور الصهيوني ـ الاسرائيلي المشترك يثير كلاً من المشكلة اليهودية (كما عرفتها أوروبا)، من جهة، والموقف الصهيوني من فلسطين، من جهة أخرى. والعلاقة بين هاتين الدائرتين تعبّر عنها، بصدق، تلك القصة الرومانية التي تروى عن ان عبداً رومانياً اعتقه سيده؛ وعندما سئل عن أول شيء سوف يفعله بعد نيل حريته، أجاب العبد الطليق: «سوف اشتري عبداً لنفسي طبعاً!»(٢٣).

ظلت هذه العملية المزدوجة، المتمثلة في تشويه الطابع القومي العربي في فلسطين وتحسين الطابع اليهودي، احدى ركائز السياسة الصهيونية الدعائية في العالم الغربي. والامثلة في هذا الصدد كثيرة. فأحد الكتاب الصهيونيين يقدم سكان فلسطين كما يلي: «... انهم بلا ثقافة، ويفتقرون الى ملامح القومية، وهم يتطبعون بسهولة، وبسرعة، بأية ثقافة واردة عليهم، اذا كانت أعلى من ثقافتهم. انهم لا يستطيعون أن يتوحدوا في مناهضة التأثيرات الخارجية بصورة منظمة، وليسوا قادرين على